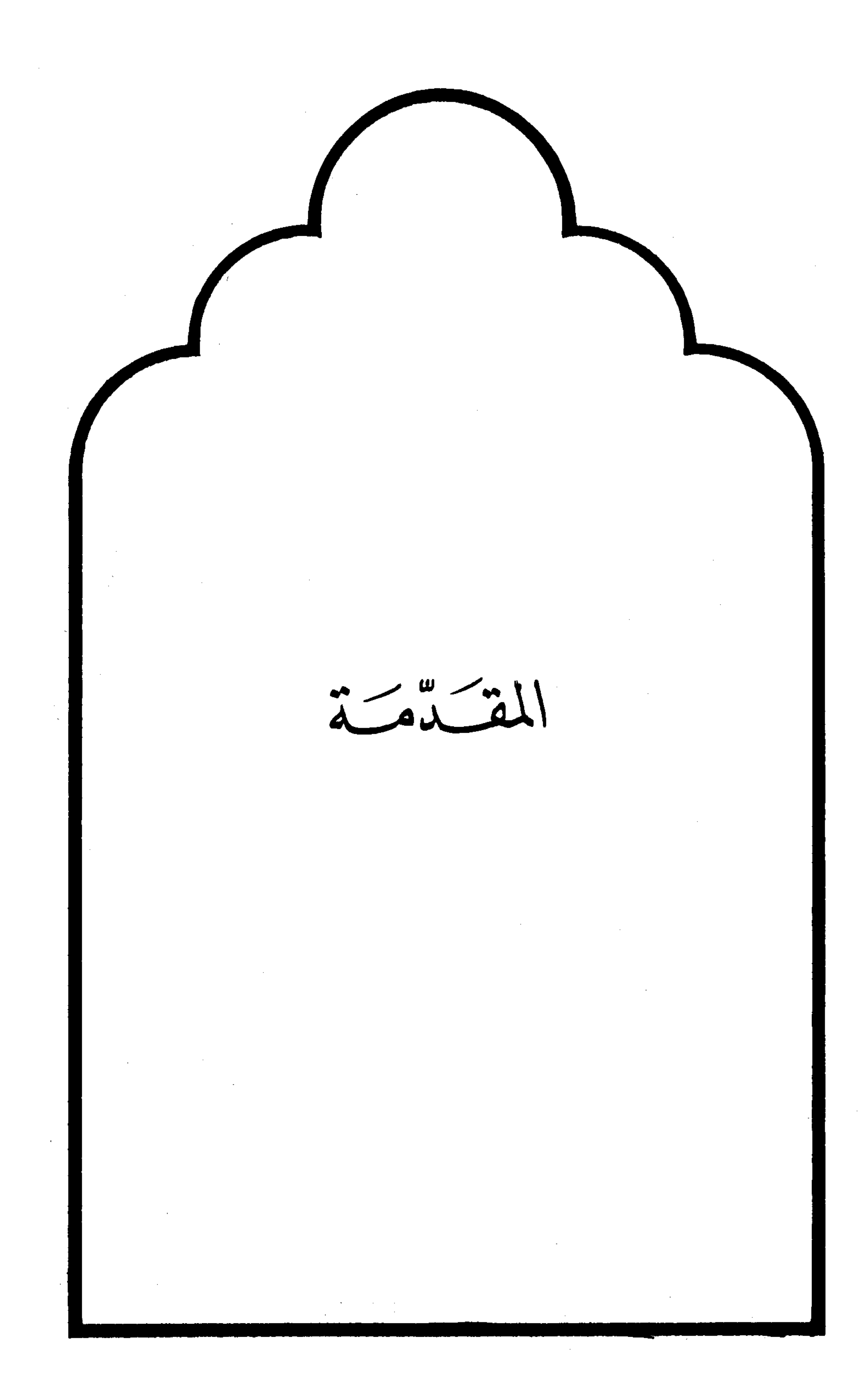


عُنِيَ بتصحيحه وتنقيحه

كارليل هنري هيس مكارتني

عالم الكتب


ديوان شعر
ذي الرمة
غيلان بن عقبة العدوي



المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الديوان

قال أبو عمرو بن العلاء: «فتح الشعر بامرىء القيس وختم بذي الرُّمّة».

وذو الرّمّة هو غيلان بن نهيس بن مسعود العدوي المضري. وهو على ما قال الشريشي في شرح مقامات الحريري (٢/٥٣): غيلان بن عقبة بن بهيس، وغيلان بن عقبة بن مسعود، على ما قاله الأنطاكي في تزيين الأسواق (١/٨٨).

عاش بين ٧٧ ـ ١١٧ هـ. ولقب بذي الرُّمّة لقوله في رجزٍ له: [ديوانه، الأرجاز ٥ ـ ٨ من القصيدة ٢٤]:

على ثلاثٍ باقيات سودِ
وغير باقي ملعب الوليدِ
وغير مرضوخ القنا موتودِ
أشعث باقي رُمّة التقليدِ

والرُّمّة: القطعة من الحبل الباقية في الوتد الذي لم يُنزع.

ويكشف لنا رأي أبي عمرو المدرسة التي ينتمي إليها شاعرنا. ولذا فهو آخر شعراء الجاهلية انتماء بتشبيبه وبكائه على الأطلال، وفي أغراضه الشعرية.

ولقد حافظ ذو الرُّمة على هذا النزوع بإقامته بالبادية، وتردده إلى اليمامة والبصرة والكوفة. ومع هذا فلا تتوقف المصادر كثيراً عند إيراد تفاصيل حياته، اللهم إلا معرفتنا بأنه أحب ميّة وشبب بها عشرين عاماً، وأحب الخرقاء أيضاً، وأنه كان يقصد خلفاء بني أمية في دمشق.

وفي هذا المجال، أورد صاحب مصارع العشاق (١/٢٠٩) خبراً مطولاً عن

ذي الرمّة رواه أحد شيوخ بني فزارة قال: «كان حلو العينين، حسن المضحك برّاق الثنايا، خفيف العارضين، إذا نازعك الكلام لا تسأم حديثه، وإذا أنشد أبرّ وحسُن صوتُه.

ثم يروي الفزاري خبر زيارته مع ذي الرُّمّة إلى حي ميّ المنقرية، ولما وصلا، اجتمعت عليه نساء منقر وأخذت إحدى الظريفات تستنشده الشعر وتتظارف معه. فأنشدهن.

ثم جلس وميّ منفردين وتحادثا، ثم قاما، فانتضحت عيناه بعبرة فقال الفزاري: فمه. فقال ذو الرمة: إني لجلد، وإن كان مني ما ترى.

ويعلق الفزاري قائلاً: فما رأيت صبابة قط، ولا تجلداً، أحسن من صبابته وتجلده يومئذ.

وقيل: إن ذا الرمّة بدأ تعاطيه الشعر بالرجز، ولمّا أدرك أنه لن يفلح في مجاراة العجاج وابنه رؤبة، انكفأ عنه وعوّل على الشعر.

ونعرف أن ذا الرّمة كان راوية الراعي النميري، مما أضفى على شعره طابع البادية والجاهلية في القصيدة، وشكل أمامه عقبة صعب عليه تجاوزها بعد أن رأى تنعم حياة أهل المدن، وأدهشه ما أصابوه من تنعّم وترفّل. ويصور لنا ذلك في الأبيات ٤٤ - ٤٦ من القصيدة ٦٧ التي يشبه فيها تذنيب ناقته بمروحة من ريش الطاووس:

إذا هي لم تَعْسِرْ به ذنبت به ... تحاكي به سَدْو النجاء الهمرجلِ
كما ذَبّبتْ عذراء غيرُ مشيحةٍ ... بعوضَ القرى عن فارسيّ مرفّلِ
بأذناب طاؤوسٍ ضمت عليهما ... جميعاً وقامت في بقيرٍ ومرفلِ

ويدّعي ذو الرمَّة بفخر، أنه كان يسهر لنظم الغريب، يجنبه السناد والمحال في قوله [من القصيدة ٥٧، البيتان ٤٨ - ٤٩]:

وشعرٍ قد أرقتُ له غريبٍ ... أجنبه المساند والمحالا
فبتّ أقيمه وأقدّ منهُ ... قوافيَ لا أعدّ لها مثالا

والسناد: اختلاف إعراب الحرف القافية مكسوراً والحرف الذي فيه قبل القافية في البيت الثاني وما بعدها مفتوحاً.

وهو يدعي أيضاً بأنه يقدّ قوافي لم يسبقه إليها أحد.

ولذا فقد عدّ بعض النقاد شعره هذا بأنه لم يكن من الشعراء المطبوعين. وهو عكس ما كان عليه أبو الطيب المتنبي حيث يقول:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصمُ

وإذ كان ذو الرّمة شاعراً جاهليّ الانتماء، فإنا نراه يعالج في شعره ما عالجه شعراء الجاهلية الذين عاشوا في بيئة محدودة، يلعب فيها الحيوان، ولا سيما الناقة، الدور الأول. وبدلاً من أن يضع الإنسان الجاهلي الحيوان في الصف المقابل، صف الأعداء، نراه وقد عرفه بأنه القسيم والشريك والرفيق. فقام، كما كان الإنسان القديم قد فعل، باستخلاص ما استأنسه وجعله في صفه. ولذا فإن الشعراء الجاهليون مالوا إلى إشاعة الحياة في شعرهم، وأوردوا التشبيهات التي تؤنس الحيوان والطبيعة.

وكان لذي الرُّمّة اليد الطولى في هذا المجال. فقد أقبل على البيئة الجاهلية بإيجابية وعطف، حتى أنّا لنحس دبيب الحياة يسري في شعاب الجاهلية ورمالها وحيوانها. وهاك ما قاله في القصيدة ٣٩ التي يشبب فيها بالخرقاء:

وكائن تخطت ناقتي من مفازةٍ وكم زلَّ عنها من جحاف المقادرِ

ويتابع طريقته فيجمع بين الناقة والمها واليعافر (الظباء):

إلى نضوة عوجاء والليل مغيش مصابيحه مثل المها واليعافر
قد استبدلت بالحلم جهلاً وراجعت وثوباً شديداً بعد وثبٍ مبادر

ويقول في القصيدة ٦٦:

جعلت له من ذكر مية تعلّةً وخرقاء فوق الواسجات الهواطلِ

والواسجات الهواطل هي الإبل، في سيرها وسيج وهطلان.

ويجمع في الموضع نفسه بين الطير والإبل والنجوم والقطا والذئب فيقول:

ونومٍ كحسو الطير قد بات صحبتي ينالونه فوق القلاص العياهلِ
وأرمي بعينيّ النجوم كأنني على الرحلِ طاوٍ من عتاب الأجادلِ
وقد مالت الجوزاء حتى كأنها صِوارٌ تدلّى من أميلٍ مقابلِ

ومن القصيدة ٧٠ نقتطف الأبيات التالية:

نتوجَّ ولم تقرف لما يمتنى له   إذا انتجت ماتت وحيٌّ سليلها
رأيت المهارى والديها كليهما   بصحراء غفلٍ يرمح الآل ميلها

ومنها أيضاً:

على حميريات كأن عيونها   قلات الصفا لم يبق إلاّ سمولها

ومنها:

تُرى القلوة القوداء منها كفاركٍ   تصدى لعينيها فصدّت حليلها
فأوردها مسجورة ذات عرمضٍ   تغول سيول المكفهرات غولها

إننا نجد أنفسنا أمام بانوراما الطبيعة في الجاهلية، وقد حوّل شاعرنا فيها الصحراء وأشياءها إلى طبيعة حية تضج الحياة برمالها ونباتها وأشيائها. ولعلّ هذا ما جعل اللغويين يقبلون على دراسة شعره ويستخرجون منه الغريب، مما وفّر لهم مادة طيبة تغني شروحهم.

على أن بعض النقاد أشاروا إلى تقليده سابقيه، وأشار بعضهم إلى أنه لم يكن لذي الرّمة حظ في المديح. وقد أثار ذو الرّمة ممدوحه بلال بن أبي بردة البيت ٥٤ من القصيدة ٥٧ التي يمدحه بها ويقول فيه:

سمعت الناس ينتجعون غيثاً   فقلت لصيدح انتجعي بلالا

إلاّ أن هؤلاء النقاد سجلوا لشاعرنا ابتكاره الالغاز والمعمّى، الذي توسع فيه، حتى لنجدُ له ثلاثاً وعشرين تعمية قد عطف بعضها على بعض بواو العطف.

أما عروضه، فيكثر في ديوانه من عروض الطويل والكامل والبسيط والوافر، وهو مع ذلك يحسن مطابقة الحروف للمعاني، كما أنه سباق في حقل عمل النقاد الأوربيون على نشره حديثاً من ربط مدلول الكلام جملة والحروف تفصيلا، بأنماط الحياة الحضارية، وبذا فإننا نرى في شعر ذي الرّمة، بل وفي الشعر الجاهليّ بعامة أسس الريادة في نظرية البنيوية.

وقبل أن نختم هذه العجالة في الحديث عن شعر ذي الرّمة نورد قول جرير: «لو خرس ذو الرّمة بعد قصيدته:

ما بال عينك منها الماء ينسكبُ   كـأنـه من كـل مغـريـة سكب
لكان أشعر الناس».

ومع أن جرير بن الخطفي بقوله هذا ربما كان يرمي إلى اتهام باقي شعر ذي الرّمّة، لكنه لا يمكن أن يقلل بأي حال من الطاقة الشعرية التي يزخر بها هذا الديوان، ولا يمكن أن يمنعنا إلاّ أن نعيش اللمسات الانسانية التي يضفيها شاعرنا على الحياة، وهو ما جعله بحق أحد فحول شعراء الطبقة الثانية.

ويشهد على ما كان عليه شعره من انتشار بين الغزلين من العاشقين والعاشقات، عبر روايات عديدة تركها لنا صاحب «مصارع العشاق» نذكر منها:

ما أنشده في كناسة الكوفة: البيت السادس من القصيدة العاشرة (مصارع ١/٣١).

ومنها: الأبيات ١١ ـ ١٢ ـ ١٣ من القصيدة ٣ (مصارع ١/١٠٠).

ومنها: البيت ١٤من القصيدة٧٠ أنشدته إحدى المحبات (مصارع ١/١٣١).

ومنها: البيتان ٢ ـ ٣ من القصيدة ٦٦٧ ويوردهما الفقيه أبو بكر بن غياش عن تعلمه التجلد أمام المصائب من شعر ذي الرّمّة (مصارع ٢/١١٢).

ويروى في البيت الثامن من القصيدة ٢٣ إعجاب عجوز بشعر ذي الرمة (مصارع ٢/١٣٤).

ويقتطف اثني عشر بيتاً من القصيدة ١٠ وهي الأبيات ١ ـ ٥ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٤ ـ ١٥ ويقارنها مع بيت لابن مقبل وآخر لجرير (مصارع ٢/١٨٨ ـ ١٩٢).

ويذكر لنا وقوف النقاد عند شعره. ولعل أطرفها ما ذكرته سوداء من عيوب شعره في بضعة أبيات من نظمها (مصارع العشاق ٢/٣٠).

وأخيراً، فإن شاعراً بمكانة ذي الرّمة، لا بد أن تتوجه إليه الأنظار باحثة عن عيوبه.

ولقد ذكر أحدهم أنه كان لذي الرمة إخوة منهم: مسعود وهمّام وخرواش وهشاه ابن عقبة وأوفى، وأن منهم من كان يقول الشعر، فيزيد ذو الرمّة في أشعارهم أبياتاً فيغلب عليها وتذهب له.

قال ذُو الرُّمَّةِ